Gleams of Islamic Civilization
Vol.1, No.1, September 2024, 157-186
(DOI) 10.22034/SIC.2024.251738.1001

Manifestations of the Religious Other in Jalal al-Din Rumi's Poetry

Ali Aghanuri[1]
Seyed Ahmad Hosseini[2]

(Received: 2020 October 07; Accepted: 2020 December 27)

Abstract

Sufis, along with jurists, theologians, and philosophers, played a prominent role in establishing religious culture and solidifgying the principles of Islamic civilization. One of the most significant and distinguished features of their deep-rooted heritage is tolerance, politeness, and fostering good relations with people of different religions and sects. Indeed, this attribute can be considered the key to their perpetuity and their success in spreading their teachings and attracting others to their own school of thought. Among the most influential figures in this realm is Jalal al-Din Rumi, a prominent Sufi who advocated for tolerance, politeness, and peace, calling to the eradication of fanaticism, violence, and hatred, and rejecting notions of religious, national, and racial superiority. His collection of poems, the *Mathnawi*, is so deeply imbued with these values that it has been referred to as the "Epistle of Love." Accordingly, this research paper, utilizing a descriptive-analytical method, aims to shed light on the intellectual principles and foundations of this distinguished Persian poet. It seeks to reveal Rumi's aspects of tolerance and kindness and to explore his views on those who differ in opinion, belief, and religion, as derived from his enduring legacy.

Keywords: Jalal al-Din Rumi, tolerance, Sufism and Mysticism, denominational dualism.

1. Associate Professor, Department of Shia Studies, University of Religions and Denominations, Qom, Iran. (Corresponding Author) Email: aliaghanore@yahoo.com
2. PhD student in Sufism and Islamic Mysticism, University of Religions and Denominations, Qom, Iran. Email: s.ahmad.hosseini604@gmail.com

أضواء الحضارة الإسلامية
المجلد ١، العدد ١، ربيع و صيف ١٤٠٣ هـ.ش/ ٢٠٢٤ م، ص ١٥٨ - ١٨٦

تمظهرات الآخر المخالف في شعر جلال الدين الرومي

علی آقانوری[١]
سیداحمدحسینی[٢]

[تاريخ الوصول: ١٣٩٩/٠٧/١٦هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٩/١٠/٠٧هـ.ش]

الملخص

لعب الصوفيون إلى جانب الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة، دورا مرموقا في تأصيل الثقافة الدينية وإرساء مبادئ الحضارة الإسلامية. من أهم ميزات تراثهم العريق وأبرزها، هو التسامح والمداراة والعلاقة الطيبة مع أصحاب الأديان والمذاهب المختلفة، حيث يمكن القول بأن هذه الميزة هي سرّ تخليدهم ونجاحهم في نشر دعوتهم واستقطاب الآخر إلى مذهبهم الفكري. وأما من أهم الشخصيات الفعالة في هذا المضمار، فهو جلال الدين الرومي، الصوفي البارز الذي نادى بالتسامح والمداراة والسلم، ودعا إلى تبديد العصبية والعنف والحقد، ونبذ الاستعلاء الديني والقومي والعرقي، لدرجة أن سُمّيت مجموعة مثنوياته برسالة العشق. تأسيسا على ذلك، تروم هذه الروقة البحثية المتواضعة، بالاعتماد على المنهج الوصفي-التحليلي، أن تسلط الضوء على المبادئ والأسس الفكرية لدى هذا الشاعر الفارسي المرموق، وأن تميط اللثام عن وجوه التسامح والمداراة لديه، وأن تكشف عن نظرته للآخر المخالف في الرأي والعقيدة والدين، وذلك استنادا إلى تراثه الخالد.

الكلمات المفتاحية: جلال الدين الرومي، التسامح، التصوف والعرفان، الثنائية المذهبية

---

١. أستاذ مشارك في قسم دراسات الشيعة، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران (الكاتب المسؤول). aliaghanore@yahoo.com
٢. طالب الدكتوراه في قسم التصوف والعرفان الإسلامي، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران. s.ahmad.hosseini604@gmail.com

١. المقدمة

لقد ترك التراث الصوفي والسلوك العرفاني أثرا عميقا في نشر ثقافة التسامح والمداراة وإشاعة روح التعاطي المرن مع الآخر، والمعاشرة السهلة واليسيرة مع الناس، بمعزل عن التعصب الطائفي والتطرف المذهبي. فقد حاولت الطريقة الصوفية بشكل جدي تطهير الدين والمذهب من العنف والخشونة، وتعزيز الحرية من أجل حياة الإنسان وسعادته، الأمر الذي كان ولايزال محبذاً لدى الدين والثقافة الإسلامية.

ويمكن القول بوثوق بأن دور الصوفيين، مقارنة بأصحاب المسالك الأخرى، كان عظيما وملفتا في الدعوة إلى الوحدة والمحبة والتسامح المذهبي والتواشج الديني، ونبذ التعصب الطائفي والقومي والعرقي، والتأكيد على السلام والحرية والإنسانية؛ وأخيرا، يمكن القول بأن الصوفيين أثروا في التراث الديني والإسلامي على امتداد تبني خطاب التعايش السلمي بين سائر أطياف الشعوب المسلمة؛ وإن لم نقل بذلك، فعلينا الإذعان بأن ذلك قد كان من أهم رسائلهم وتطلعاتهم التي نادوا بها.

ورغم ما كان يعاني منه المتصوفة من الأذى الكبير وحملات التشهير وألوان الإساءة من قبل الخصوم والمناهضين، إلا أنهم نادوا بالتسامح والمداراة والرفق، الأمر الذي يعكس مدى الصبر والحلم الذي غرسته فيهم التعاليم الصوفية ومسالك العرفان. فقد خلق روّاد وأتباع هذا المذهب أكثر من غيرهم، مناخا رحبا للحوار الهادئ والتعاطي المرن والتعايش بسلام، من خلال الاعتماد على البعد المعنوي والباطني للدين الإسلامي وسائر الأديان الأخرى؛ ذلك لأنهم لم يلحظوا إطلاقا نقاط الخلاف بين الأديان والمذاهب الإسلامية، ولم يقرأوا تلك الأديان والمذاهب قراءة سطحية، ولم ينظروا إليها نظرة ظاهرية ساذجة؛ إذ لا شك في أن أحد الأسباب المهمة في الكثير من الصراعات العقيمة التي قد أدت إلى أن يكفّر أتباع الأديان بعضهم بعضا، وأن يفسّق المسلم أخاه المسلم، وأن يلعنه، وأن يسفك بعض المسلمين دماء بعضهم الآخر، يكمن في الاهتمام والتركيز على المعطيات السطحية والظاهرية للأديان والمذاهب.

ولكن لو كان هناك اهتمام بالجوانب الباطنية للدين وأبعاده الروحية والمعنوية، سواء على المستوى النظري، كوحدة الوجود والعشق الإلهي وتقسيم أبعاد الدين إلى الشريعة والطريقة والحقيقة أم على المستوى العملي وتجسيد التخلّق بأخلاق وفضائل التصوف من قبيل التسامح والإيثار ومحبة الآخر والشفقة على الناس، لَتعبّد الطريق وتهيّأت الأرضية أمام الحوار المثمر بين سائر الأطراف والأطياف، ولساد التصالح والتسامح والأخوّة بينهم.

ويمكن العثور على مضامين توطيد هذه التعاليم، ونشر خصائصها ومزاياها السامية في أكثر ما تبقّى من تراث العرفاء والصوفيين، وفي مقدمتهم الحسين بن منصور الحلاج وأبو الحسن الخرقاني، وأبو يزيد البسطامي، وأبو سعيد أبي الخير، والعطار النيشابوري، ومحيي الدين بن عربي، والعراقي، وشمس الدين التبريزي، ومحمود شبستري، وحافظ وسعدي الشيرازيين.

من هذا المنطلق، نروم في هذه المقالة أن نلقي الضوء على ما تبقى من تراث جلال الدين الرومي، وأن نعطي صورة مختصرة عن فكره ورؤيته في هذا الجانب، وأن نستعرض القواعد العرفانية والأصول الصوفية المتعلقة بالاختلافات الدينية والصراعات المذهبية لدى هذا الشاعر الفارسي الشهير بشكل عابر، وأن نتناول طبيعة رؤيته تجاه مخالفيه مذهبيا ودينيا، ودواعي وأسباب ظهور وتبلور ذلك الخلاف أيضاً.

٢. ظاهرة الاختلاف وأسبابها في ضوء ما يراه الرومي

كانت الدعوة إلى التسامح والمحبة والصفح المذهبي من قبل بعض المتصوفة، لاسيما متصوفة القرون الأولى، تقوم في الأغلب على البراهين والأدلة الباطنية للمذهب، أو كانت الدوافع تعود إلى ضرورات سياسية واجتماعية أو سلوكيات أخلاقية، أو كان ذلك النهج

يرجع إلى المحبة والعطف الإنساني، ولم يكن منبثقا عن الرؤية الوجودية والتجلي العرفاني أو ملاحظة المنهج الصوفي الخاص بالوحدة والعشق.

ومع أن جلال الدين الرومي كان قد تبنى موقفا إيجابيا في الصفح والتسامح إزاء مخالفيه الدينيين والمذهبيين لدواعٍ اجتماعية ودينية وإنسانية، أو بداعي الاقتداء بسيرة الأنبياء والصلحاء؛ ولكنه كان يستعين بذلك ويعتقد به من أجل تعزيز القواعد الأساسية في منهجه وطريقته، وكان يوظّف تلك التعاليم والمفردات السامية لتوطيد رؤيته الصوفية إزاء الكون والوجود وتجلياته، وكذلك، كان يحاول أن يجعل كل تلك الساحات والميادين نوافذ لترسيخ رؤيته الإنسانية الخاصة.

هنا، نسعى أن نشير فيما يلي إلى بعض الأصول والقواعد الصوفية التي ساقها إزاء الوجود، وأن نقدم ملامح رؤيته العرفانية وتمظهراتها وآثارها.

٢-١. رؤيته في وحدة الوجود

نجد أن الكثير من سياقات التعبير لدى الرومي، وتعاليمه الروحية، جاءت مبثوثة في تراثه الغني، حيث نادت بضرورة زرع روح التسامح والصلح عند الاختلاف والتصارع وتحبيب التعايش السلمي بين المذاهب والأديان. فنجدها جاءت في سياق التأكيد على رؤيته في وحدة الوجود، وتجلي الحق والعشق، وجاءت كذلك في مضمار بيان الرؤية الصوفية التي يتبناها في دور الإنسان ومكانته في الخلق. بعبارة أدق، فكانت تلك التعاليم منطلقة تارة من نظرته للوجود، وأخرى من نظرته للمعرفة، وأخيرة من نظرته للإنسان.

إن رؤية العرفانية للرومي وقوله بوحدة الوجود، ونظرته إلى تجليات الحق تعالى الغير متناهية في مختلف صور وصفحات الوجود، هي رسالته التي سعى سعيا حثيثا لإيصالها إلى الناس. فهو لا يرى إطلاقا في آثار الحق العظيم المنتشرة على صفحة

الكون، لونا من ألوان الكثرة أو التجزئة، بل يعدها انعكاسا للوحدة، ويرى كل الأماكن المتوزعة في مرامي الوجود الفسيح وطنا، وكل اللوحات الوجودية صورا للحبيب، جميلة كانت أم قبيحة.

فعلى ضوء رؤيته الصوفية، وبحسب السلوك العرفاني ونظرته لعالم الطبيعة وألوان التشخص، والأحكام المتعلقة بها، اجتماعية كانت أم أخلاقية أم اجتماعية أم فقهية، يذوب النزاع والصراع، حيث لا يبقى مكان للخلاف. فعلى حسب تلك الرؤية، أن الجميع أصحاب وأحبة، وسواء كانت تلك الأحكام والمضامين والصور والأماكن قبيحة أم جميلة، حلوة أم مرة، في المسجد أو في الكنيسة أم أم أي معبد ...، فإنها بيوت الحبيب ومنازله. يقول عين القضاة الهمداني في تقرير هذا المعنى:

> يا عزيزي، إن شروط السالك إلى الله كثيرة، قد ذكرها المختصون بشكل مجمل؛ ولكن تفصيل تلك الشروط والضوابط انتهت إلى مجموعة من المدارس والمذاهب، ووصلت إلى ثلاثة وسبعين فرقة معروفة: الأول في طريق السالك، وفي اللقاء الأول كان واحدا وصورة واحدة متحدة، وإذا كانت السبل مختلفة، كان السالك متشظيا ومنقسما. وفي هذا الصدد، يقول الحسين منصور الحلاج "أنا على مذهب ربي"، أجل فإن الخلاف والصراع والعداء موجود في عالم الخلق السفلي؛ وأما في العالم الإلهي العلوي، فلا وجود لأي لون من ألوان الخلاف والبغضاء. من هنا، يسير السالك في فضاء متناغم وعالم متحد ومنسجم، يرى فيه جميع المذاهب والآراء بعين واحدة، دون عداء أو بغضاء (فروزانفر، د.ت، ج ٣، ص ١٠٥٠ ـ١٠٥١).

وعلى ضوء ما يراه المتصوف والعارف جلال الدين الرومي، فإن نظرية الوحدة تجعل عالم الخلق أجمل وأحلى في عين الإنسان السالك، فحين يصل الإنسان إلى مرحلة الوحدة، لا يرى مجالا للإثنينية أو التعارض، بل يشاهد كل الأديان والمذاهب والفرق

بعين الوحدة والانسجام. على أساس ذلك، عندما نلاحظ فتك الإنسان بأخيه واختلافه معه، فهو إنما يرجع إلى جهله بتلك الوحدة والضابطة العامة التي تحكم الوجود والعالم. يقول الرومي في هذا الصدد:

إذْ بِلا لَوْنٍ أَسيرَ اللَّوْنِ صارْ وَلَهُ التَّعيينُ قَدْ كانَ شِعارْ
كانَ مُوسى مَعَ مُوسى في جِلادْ مُسْتَمِرٍّ وَاخْتِلافٍ وَتَضادْ
وَإِلى لا لَوْنَ مَنْ كُنْتُ وجَدْتْ إنْ وَصَلْتَ وَلكَ اللَّوْنَ فَقدتْ
فَلمُوسى مَعَ فِرْعَوْنَ مُدامْ حَصَلَ الصُّلْحُ كَذاقِسْ فِي الأَنامْ

(د.ت، ج ١، ص ٥١٤).

من هنا، نلاحظ أن الرومي يعتبر أصل ومنشأ الوجود وكذلك الأديان و المذاهب والمعتقدات دون لون وبلا أية نزعة أو صبغة أو رائحة؛ ولكن لو أصبحت هذه الأديان والمذاهب في عالم الكثرة، وتجلّت متجزئة ومتعددة، لأفضت إلى الاختلاف والصراعات والحروب.

من هنا، فإن جلال الدين الرومي يرجع بعض النزاعات التي نشهدها بين الناس، إلى الاختلاف في الأسماء والرموز والمظاهر وتباين وجهات النظر وتفاوت الاستيعاب والمعرفة، بسبب الجهل بحقائق تلك الأشياء، ويعيد الاختلاف بين الديانات والمعتنقات إلى التفاوت في الرؤية والنظرة الشاملة، ويعتبر بعض تلك الخلافات ناشئة عن الاختلاف في الاسم والمظهر فقط.

يشبّه جلال الدين الرومي السالكين إلى الله والسائرين في طريق الهدى، بالأشخاص المتنازعين الأربعة بسبب اختلاف ألسنتهم ولغاتهم، والذين أعطاهم أحد درهما لشراء بعض عناقيد العنب، فرغم اشتراكهم في البحث عن حقيقة العنب الواحدة، إلاّ أن كل

واحد منهم كان ينطق العنب بلغته الخاصة (زرين كوب، د.ت، ص ٢ـ٩)، الأمر الذي أدى إلى اندلاع النزاع والصراع بينهم:

رَجُلٌ أَعْطى رِجالاً أَرْبَعَةْ ... دِرْهَماً كانَتْ بِهِ مُجْتَمِعهْ
ذلِكَ الواحِدُ قالَ أَشْتَري ... بِهِ أَنْكوراً حَلى كَالسُّكَّرِ
ذلِكَ الآخرُ كانَ عَرَبي ... قالَ لا أَطْلُبُ حُلْوَ العِنَبِ
أَنَا وَالأَنْكور لا أَبْغي هُنا ... أَيُّهَا المُحْتالُ فَهْوَ لي المُنَى
ذلِكَ الواحِدُ تُرْكِيٌّ وَقالْ ... عَيْني خَلِّ الخِصامَ وَالجِدالْ
أَنَا أَبْغي أُزوماً لا عِنَبا ... هُوَ لي كانَ المُنَى وَالطِّلَبا
ذلِكَ الواحِدُ رومِيٌّ وَقالْ ... أُتْرُكوا لِلْقيل هذا وَالمَقالْ
طَلَبي اسْتافيلَ لا أَنْكورَ لا ... عِنَباً لا أُزوماً هَبْهُ حَلى
فِي النِّزاعِ التَّفْرُ ذا قَدّ غَدَوْا ... خُصَماءَ وَإِلَى الْحَرْبِ عَدَوْا
حَيْثُ لِلْأَسْماءِ سِرّاً غَفِلوا ... وَلَهَا الْمَعْنى جَميعاً جَهِلُوا
فَجَميعاً كُلُّهُمْ بَعْضاً لِبَعْضْ ... ضَرَبُوا مِنْ بَلَهٍ خَدْشاً وَعَضْ
هُمْ مِنَ الجَهْلِ وَمَغْزاهُ امْتَلَوْا ... وَمِنَ العِلْمِ وَمَعْناهُ خَلَوْا

(د.ت، ج ٢، ص ٧٨٩ـ٧٩٠).

ونلاحظ هنا أن الصراع في الحقيقة نشب حول الاسم؛ وذلك بسبب الجهل بالمعنى والمسمى الواقعي. وهذا الجهل بالواقع أدى إلى تشاجر أولئك الأشخاص الأربعة، لدرجة أنهم لجأوا إلى اللكم والعض بعضهم للبعض؛ في حين أنهم كلهم كانوا يقصدون شيئا واحدا.

١. المراد بأنكور، هو العنب في العربية.

من هنا، يتوصل الرومي ـ رحمه الله ـ إلى بيان النتيجة، وهي أن أهل الأديان وأصحاب المذاهب قد وقعوا في نفس الفخ الذي وقع فيه أصحابنا الأربعة؛ لأنه يرى أن الديانات الإلهية تقتبس قدسيتها وقيمتها من نور واحد يشع بأنوار مختلفة، وتتفرع أغصانها من شجرة واحدة تمد تلك الفروع بنفس الحب والعشق.

من هنا، فإن هذا العارف لا يشهد فرقا أو تباينا بين تلك الأنوار. ومع أن هذا المعنى ـ حسب ما يرى بعض الباحثين المعاصرين والمختصين بفكر الرومي ـ لا يعني بالضرورة تساوي الأديان وتشابهها؛ لكن يمكن منه فهم التسامح والصفح مع أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى.

وفي هذه النقطة بالتحديد، يرى أن كل نبي وكل وصي له مسلكه الخاص، إلا أن كل تلك المسالك والمعتقدات تؤدي إلى الله، وهو يعتبر أن التعصب والاختلاف بين أهل تلك الملل والنحل أمرا تافها عديم الجدوى (زرين كوب، د.ت، ص ٩٨٢). وعلى ضوء هذه الرؤية، تعود أصناف الأديان وألوان المذاهب، سواء مسلمة جبرية كانت أم مفوّضة، مسيحية أم يهودية، إلى نقطة واحدة لا غير؛ والقصد منها هو الهدف الواحد دون شيء.

فالاختلافات ناشئة عن اختلاف الأسماء والرموز والتفاسير والتعابير، الأمر الذي يبينه الرومي في قصة الفيل في الظلام، بشكل واضح؛ إذ يقول:

فمِنَ المنْظَرِ جاءَ الاخْتِلافْ ... بِالمَقالِ لَهُمُ وَالانْحِرافْ
ذا لَهُ لقّبَ دَوْماً أَلِفا ... ذا لَهُ بِالعَكْسِ دالّاً وَصَفا
لَوْ بِكَفِّ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمُ ... شَمْعَةٌ كانَتْ تُضِيءُ لَهُمُ
مَعْ مَقالٍ لَهُمُ ذا الاِخْتِلافْ ... خَرَجَ بِالوَحْدَةِ قالُوا اعْتِرافْ

(د.ت، ج ٣، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢).

ويقول في موضع آخر:

فِي الزُّجاجِ لَوْ نَظَرْتَ لَنْ تَرى وَتَضِلُّ فِي الطَّرِيقِ كَالْوَرى
إذْ غَدَى التِعْدادُ وَالزَّوْجيّةُ فِي الزُّجاجِ وَبِهِ الغَيْرِيَّةُ
وَعَلَى النُّورِ إذا ما تَنْظُرُ تَنْجو مِنْ زَوْجيّةٍ كَمْ تَظْهَرُ
لَكَ في أَعْدادِ جسْمٍ مُشْتَهي وَإلَى الوَحْدَةِ لُطْفاً تَنْتَهي
فَمِنَ المَنْظَرِ يا لُبَّ الوُجُودْ اخْتِلافُ المُؤْمِنِ حَقّاً يَعُودْ
مَعْ مَجُوسٍ وَيَهودٍ وَمِلَلْ خالَفَتْ لِلْكُلِّ رَأْياً وَنَحِلْ

(المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٠).

وبحسب ما يراه الرومي، فإن المشكلة الأكبر تكمن في أن البعض يسلك الطريق الخطأ، فيقول:

لكِنِ البَعْضُ هُمُ نَحْوَ الذَنَبْ وَجَّهُوا الوَجْهَ وَضَلّوا بِالطّلَبْ
ولَوِ الرَّأْسُ غَدَى الأَصْل هُمُ ضَيَّعُوا الرَّأْسَ لِجَهْلٍ بِهِمُ

(المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٤).

لقد تناول الرومي في قصة موسى والراعي، كل التناقض والتضاد الذي يراه هؤلاء في الذات والصفات، وصاغ مقصود الحق على لسان موسى، يقول: ولقد ألقى الله ـ بعد ذلك ـ أسراراً في أعماق قلب موسى، لا تكون مما يباح به، ولقد تدفقت الكلمات إلى قلب موسى، وامتزج الشهود بالكلام، ألا تعلم:

فَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ ذَا الأَنَام سيرةً نَحْنُ وَضَعْنا وَمَرامْ
وَلِكُلِّ أَحِدٍ نَحْنُ لِسانْ قَدْ مَنحْنا وَاصْطِلاحاً وَبَيانْ
لَهُ مَدْحُ وَلَكَ سَبٌّ وَذَمٌّ لَهُ شَهْدٌ وَلَكَ صابٌ وَسَمْ

(المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٧).

وعلى ضوء هذه اللوحة الرائعة، يقال حتى أنه كان يعتقد بالوحدة الجوهرية للأديان. وفي هذا السياق، يقول:

مِأةَ أَلْفِ كِتابٍ إنْ تَجِدْ ... لَيْسَتْ إلّا واحِدَ البابِ بِجِدْ
أَلْفُ أَلْفِ جِهَةٍ إنْ تَقْصُدِ ... غَيْرَ مِحْرابٍ بِها لَمْ تَرِدِ
كُلُّ هذي الطُّرقِ المُبْتَعِدَهْ ... كُنَّ في تَخْليصِها المُتَّحَدَهْ
وَمِنَ البَيْتِ الفَريدِ ذي أُلوفْ ... سُنْبُلٍ مِنْ حَبّةٍ بانَتْ صُنُوفْ

(المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٠٧ ـ ٧٠٨).

وفي موضع آخر، يقول:

عَشْرَة أضْواءٍ لَوْ تجْمَعُ حينْ ... في مَكانٍ وَلَها الفَرْقُ يَبينْ
صورَة عَنْ غَيْرِهِ فَرْداً فَفَرْدْ ... ميّز بِالوَصْفِ في شَكْلٍ وَحَدْ
أَبَداً لا تَقْدِرُ الفَرْقَ تَجِدْ ... بَيْنَ نورِ كُلِّ ضَوْءٍ مُنْفَرِدْ
لَوْ تَوَجَّهْت النُّور لَهُ ... كانَ نورُ كُلِّ فَرْدٍ مِثْلَهُ
اطْلُبِ المَعْنى مِنَ الفُرْقانِ قُلْ ... لا نُفَرِّقْ بَيْنَ آحادِ الرُّسُلْ

(المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٤).

ويقول في مناسبة أخرى: بما أن الحق واحد والسبيل إليه واحد أيضا، فإن حديث العظماء عنه، حتى لو كان بصور مختلفة، فإن مقصودهم يحمل معنى واحدا. فالاختلاف في الصورة لا في المعنى. وبما أن الممدوح واحد دون سواه في ألسنتهم، فإن المعتقدات والأديان واحدة أيضا. من هنا، فإن المطيع والعاصي والملك وحتى المردة من الناس والصلحاء منهم كلهم عباد الله (مولوي، ١٩٨٤م، ص ٤٦).

إن العرفاء بشكل عام، والرومي بشكل خاص، لا يلحظون فرقا في العرق والدين والمذهب بين سائر الناس، بل لا يرون ذلك إطلاقا، ولا يوجد عندهم أي أثر لاختلاف الطبقات بين

الملك والشحاذ والغني والفقير واليهودي والمسيحي، بل كلهم يجلسون في صومعة واحدة، غادرتها كل ألوان التعصب والتعالي والتمييز.

وهذا يعود إلى عقيدة هؤلاء التي تذهب إلى أن ألوان الخلاف وتمايز الألوان والطبقات الدينية والمذهبية كلها، تعود إلى عالم الدنيا المتزاحم بالبشر. في عبارة أدق، فإن ذلك من لوازم وأحكام عالم الحدوث، وهو من صناعة الناس الذين ضاق أفقهم وقصرت معرفتهم. وأما في العالم العلوي الإلهي الذي يتصف بالوحدة المحضة، فإن جميع تلك الألوان والقيود تنعدم تماما، فإن إله العالم ليس مسلماً ولا يهوديّاً ولا مسيحياً ولا زرادشتياً ولا بوذياً، وليست الصراعات والاختلافات بين الفرق والمذاهب إلا جهلا وقصورا في المعرفة، وهي نزاع يشبه نزاع «الأنكور والعنب» الذي ذكره لنا الرومي سابقا في المثنوي.

من هنا، فإن الرؤية الكونية العرفانية وروح التصوف تقتضي السلام والتصالح، وعالما خاليا تقريبا من الصراع والحروب والعداوات. وعلى ضوء هذه الرؤية التي ينادي بها العارف والمتصوف، ونظرته للوجود التي تختزله بالحق وتجلياته، يكون الحق هو الكمال والجمال المطلق، والعالم أيضا عبارة عن تجلي ذلك الكمال وانعكاس ذلك الجمال.

إذن، فإن ما يوجد في العالم هو الخير والجمال والبهاء فقط، وليس الشر والقبح سوى ظهورات عارضة لا تتصف بأي لون من الأصالة والحقيقة. من جانب آخر، فإن العارف بالله وتجلياته وآثاره لا يوجد في قلبه سوى الحب والعشق وتجلياته، والمتصوف لا يرى سوى هذا العالم البهي ولا يعشق سواه.

ومن خلال هذه النظرة، فلا مكان للخصومة والخشونة والجدال. ومن منطلق رؤية العارف، يكون الإنسان على اختلاف ألوانه وطوائفه، طالبا وقاصدا الحق تعالى دون سواه، سواء شعر بذلك أم لم يشعر، وهو دائم السعي والقصد نحوه سبحانه.

٢-٢. عنصر المحبّة والعشق

من العناصر والأسباب الأخرى التي تجلى فيها اختلاف نهج الرومي عن المنهج الآخر الذي يرى أن الاختلافات المذهبية والدينية هي فروقات بين البشر، هو اهتمام الأخير العميق بالعشق والتعلق الصوفي، رغم أن العناية بموضوع العشق وترانيم الحب وأنغامه بدأت من القرون الأولى، وتحديداً في عصر نمو وانتشار التصوف على يد بايزيد البسطامي والحلاج والخرقاني.

من هنا، لا يمكننا الزعم أن انطلاقة هذا الموضوع كانت مع جلال الدين الرومي؛ ولكن الذي يمكننا قوله إن العشق والحب الصوفي أخذا منحى آخر ولونا جديدا على يديه، حتى أنه خصص بعض أشعاره في المثنوي لهذا الأمر، وسمى بعضها برسائل العشق. وفي مدرسة العرفان والتصوف لدى الرومي، يكون العشق والمحبة والتعلق دواء لكل داء، وهو علاج لكل ألوان الغرور والعجب والعنف المذهبي والطائفي والقومي والعرقي. بعبارة أخرى، فإن الرومي يعتبر الحب والعشق هو السبيل الأمثل لمكافحة أمراض التكبر والغطرسة والتسلط والتمييز:

إهْنَأنْ ياعِشقَنَا السَّامي بِنا ... مَنْ بِهِ طابَ السَّقامُ والعَنا
يا طَبيبَ كُلِّ داءٍ وَسَقامْ ... قَدْ دَهانا وَضِيانا فِي الظَّلام
يا شِفا نامُوسِنا فِي السِّقَمِ ... يا دَوا نَخْوَتِنا فِي الأَلَمِ
أنْتَ أَفْلاطونَنَا الرَّاقي نَظَرْ ... أَنْتَ جالِينوسِنَا السَّامي أَثَرْ

(د.ت، ج١، ص٨).

فإن الرومي يعدّ العشق عنصرا فاعلا في بناء الذات وصقل الشخصية، ومنقذا حقيقيا من المنّ والتباهي والغرور والتكبر والحرص، ودافعا ملهما للتواضع والتسامح مع الناس:

كُلُّ مَنْ خَرَّقَ لِلْعِشْقِ الثِّيابْ ... وَبِهِ يَسْأَلُ لِلرُّوحِ العَذابْ
فَهْوَ مِنْ حِرْصٍ وَعَيْبٍ ماكَثُرْ ... بَتَّةً بِالذَّاتِ وَالوَصْفِ طَهُرْ

(المصدر نفسه).

وحيث إن العشق على ضوء الرؤية العرفانية من نعوت الفناء والطهارة. فهو يخلّص العاشق من ضعف الهمة وقصور الطلب والإرادة، ويجعل من وجوده بحبوحة رحبة لاستيعاب وتقبل وجود المعشوق الحقيقي، وهو الحق سبحانه. وبما أن العاشق ـ بحسب هذه الرؤية ـ يرى أن كل شيء فيه ومنه وإليه، وبالنتيجة يكون غارقا في سعادة وبهجة بسبب ذوبانه وغرقه بوجود المعشوق، فتختفي كل ألوان التفاوت والاختلاف بين الغيظ واللطف، وبين الغضب والعطف في بحر سعادته وبهجته، وتذوب كل وجوه التباين بينها.

ويمكن القول أيضا: بما أن السالك قد وصل إلى كمال الحق تعالى، فهو يرى كل شيء وكل أمر فيه وله ومنه. من هنا، فإن جميع التجليات والمظاهر، سواء كانت محسوسة أم معقولة، تصبح معشوقة للسالك؛ وذلك لأن حب الذات والتعلق بها أمر طبيعي، وهو سنّة من السنن الإلهية، فإن محبة الذات وعشقها أمر بدأ من الحق تعالى؛ ذلك لأنه عاشق ومعشوق بالذات. من هنا، ترى أن الفرد الكامل يحبه الجميع، وهذا الأمر يعود إلى أنه يدرك حقيقة ذاته، ويرى الجميع حاضرا فيها؛ لأنه نفسه الجميع، بل هو كل العالم (فروزانفر، د.ت، ج ٢، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦).

في مدرسة الرومي، تعد ظاهرة العشق العرفاني علاجا فعّالا وناجحا للكراهية والتعصب والتطرف والتفرقة، وأهم عنصر في خلق الرحمة والتسامح بين المتخالفين والمتباعدين والخصوم، ولا يعتبر العاشق ـ على ضوء ما يراه الرومي ـ الاختلاف المذهبي ورموز الكثرة والتشظي شيئا أجنبيا وغريبا، بل يعتقد أن ذلك جنونا:

مَعَ ذَيْنِ العالَمَيْنِ العِشْقُ كانْ　　أَجْنَبيّاً عَنْهُما بِالطَّبْعِ بانْ
عالَمُ العِشْقِ وَسيعٌ ذو فُنُونْ　　وَبِهِ اثْنانِ وَسَبْعونَ جُنُونْ
غَيْرَ اثْنَينِ وَسَبْعينَ الْلّتي　　مِلَلاً عُدَّت هُوَ فِي المِلَّةِ

كُلُّ دَسْتٍ للسَّلاطينِ أمامْ دَسْتِهِ بِالقَدْر رِقٌّ وَغُلامْ

(المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٦١).

فهو يعتبر السلوك البرئ والعمل الطاهر هو العشق الإلهي، وهو لا يشبه أي شعب أو دين؛ لأن شعوب العشق تختلف تماما عن كل الأديان، وأن العشاق هم شعب الله ويتمذهبون بالله فقط:

مِلَّةُ العِشْقِ سِوى كُلِّ المِلَلْ مُيّزَتْ وَاخْتَلَفَ مِنْهَا العَمَلْ

مِلَّةُ العُشَّاقِ وَالدِّينُ الإلهْ مالَها مِنْ مَذْهَبٍ في ذا سِواهْ

(المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨١).

بعد أن ينظر الرومي إلى العالم برؤية العشق والحب، يستنتج أن الكون ومظاهره وكل الشخوص والأعيان إنما هي تجلٍّ ومظهر للعشق، حيث إن كل تلك التجليات بالنسبة إليه جميلة رائعة، وكل مظاهر الاختلاف، سواء تجلت بالغضب أم باللطف أم بالطبائع الكونية المختلفة، لا تتعبه ولا ترهقه، بل هو يعشقها:

أَنَا بِالْقَهْرِ وَبِاللُّطْفِ لَهُ عاشِقٌ بِالجِدِّ فانٍ وَلَهْ

عجَباً فَالْوَصْفُ عَنْ ذا ضائِقُ أَنا لِلْضِّدَّيْنِ ذَيْنِ عاشِق

(المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٣).

٢-٣. عالم الأضداد

من القواعد والأصول التي يعتمدها الرومي هو وأتباعه، هو إشاعة أمر التساهل، ونشر الصفح والتسامح بينهم وبين الآخرين، والرضا والقبول بإرادة وصنع الحق في الكون من أضداد وتناقضات وصراع باطني تعيشه موجودات العالم، ذلك التضاد الذي يلعب دورا

كبيرا في اندلاع الحروب والاقتتال الظاهري. وبحسب تعبيره، أن العالم أو عالم الكثرة هو نتيجة لمركب أجزاء متضادة، على خلاف عالم الوحدة الذي تذوب فيه كل ألوان الخلاف وتتجلى فيه المساواة والتناغم بين أجزائه والتوالف بين عناصره؛ ودليل ذلك التشابه والتجانس بين الجميع، ودليل عالم الكثرة هو التفاوت والاختلاف والتباين؛ لذا، تجده يقول في خصوص هذا العالم: إن كل شيء فيه هو ضد ومنافس لذاته، وإن الصراعات والتناقضات الظاهرية ليست إلا انعكاسا لذلك، حتى ينتهي الرومي إلى النتيجة التالية:

حَرْبُها الفِعْلي مِنْ حَرْبٍ سُتِرْ ذلِكَ الخُلْفَ بذا الخُلفِ اعْتَبِرْ
حَرْبُنا مَعْ صُلْحِنا في نورِ عَيْنْ لَيْسَ مِنّا كانَ بَيْنَ الأَصْبَعيْنْ
وَعَلَى الأَضْدادِ لِلْخَلْقِ البِنا أبداً قامَ فَلا شَكٌّ لَنا
نَحْنُ مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ في جِلاد دائماً كُنّا وَخلْفاً وَتَضَادْ

(المصدر نفسه، ج ٦، ص ٩-١١).

في موطن آخر، يعتبر هذا الاختلاف الحاصل في عالم الكثرة لونا من ألوان حروب حرفة الصياغة، ويعدّه متاجرة في السوق الملتهب، يقول:

ذِي لَوْ تَنْظرُ الحَرْبَ غَدَتْ كَلّ لَها بِالسِّفْكِ وَالفَتْكِ بَدَتْ
ذَرّةٌ مَعْ ذرّةٍ مِثْلَ الجِلادْ بَيْنَ أَهْلِ الدِّينِ كانَ والعِنادْ

(المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨).

أَوْ هُوَ لَيْسَ بِحَرْبٍ وَجِلادْ ذا لِأَجْلِ الحِكْمَةِ بَيْنَ العِبادْ
كَالجِلادِ بَيْنَ بَيّاعِي الحَمِيرْ صَنْعَةً لِلْمُشْتَرَى الغِرِّ يَصيرْ

(المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٦).

ولكن هذا التضاد والاختلاف ـ في رأيه ـ ليس واقعيا، وليست أطرافه مناهضة لبعضها، وهو يرى أن الأفعال والظواهر، وإن تناقضت في العلن، إلا أنها تعكس مظهرا وفعلا واحدا بنظر الحكيم، بل أن كل الأشياء منسوجة بشكل دقيق قد وضع كل أمر في مكانه لضرورة وجمال (مولوي، ١٩٨٤م، ص ٢١٣).

٢-٤. العناصر والمقدمات العامة للتسامح عند الرومي

لم يغفل الرومي عن إشاعة وتعزيز روح التسامح والتعايش السلمي مع المخالفين وإثارة العناصر الإيجابية والإثار النافعة والمجدية للأفكار والرؤى التي يطرحها أنصار هذا الاتجاه من خلال الأدلة والتعاليم المذهبية والاجتماعية والنفسية، وعبر الاستدلال المنطقي على ضرورة توطيد عرى وقواعد هذه الرؤية، مضافا إلى أنه كان يضم صوته إلى المتشرعين الآخرين في بعض الموارد.

وعلى سبيل المثال، فهو لا يكتفي بمجرد السماع في تقييم أقوال ومعتقدات نظرائه، ولا يحبذ اعتبار الآخرين أعداء فقط، وذلك بسبب حديث عنهم من أتباع الفريق الآخر الذي يعد منافسا فكريا وإيديولوجيا أو خصما في الصراع المذهبي لهم:

رَجُلٌ مِنْ عالِمٍ يَوْماً سُؤالْ　　سَأَلَ الباطِل يا حُلْوَ المَقالْ
ما هُوَ وَالحَقُّ مِنْهُ الأُذُنا　　مَسَكَ الباطِلُ ذا قالَ اذْعِنا
عَيْنُكَ الحَقُّ لَكَ مِنْهَا اليَقينْ　　حاصِلٌ دَوْماً وَكَالشَّمْسِ يَبينْ
ذاكَ بِالنِّسْبَةِ جاءَ باطِلا　　عِنْدَ هذا يا أمينٌ فِي المَلا
أَغْلَبُ الأَقْوالِ كانَتْ لِلأُذُنْ　　نِسْبَةً لِلْعَيْنِ كانَتْ مِنْ لَدُنْ

(المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨).

زد على ذلك، فنلاحظ مثلا أنه يعتقد بضرورة الابتعاد عن ازدراء الأديان والإساءة للمقدسات والاعتماد على الصفح والتسامح والخلق الرفيع مع الأعداء، كما هو منهج القرآن، الأمر الذي يؤدي إلى الحد من العداوة والبغضاء وإحالتها إلى محبة وقرب، يقول:

فَلِإخْوانِ الطَّريقِ اعْرِفْ تَجِبْ ... صِلَةٌ يَسْعُدُ مَنْ فيها رَغِبْ
كُلَّ مَنْ كُنْتَ رَأَيْتَ راجِلا ... كانَ أوْ فارِسَ حَقّاً كامِلا
لوْ غَدَى الخَصْمَ الألَدَّ فِي الزَّمَنْ ... فَلَهُ الإحْسانُ ذا أَيْضاً حَصَلْ
فَبِإحْسانٍ كَثيراً مَا الرَّقِيْبْ ... وَالعَدُوُّ الخِلَّ عادَ وَالحَبيبْ
وَإذا ما لَمْ يَعُدْ خِلّاً وَدودْ ... حِقْدُهُ الزائِدُ لِلنَّقْصِ يَعودْ

(المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦٢).

ويقول في النتائج الاجتماعية والحياتية الأخرى للوحدة:

حاصِلُ القِصّةِ جاءَ أنْ صَديقْ ... كُنْ لِكُلِّ أَحَدٍ وَاقْفُوا الطَّريقْ
كُنْ كَعَبْدِ الصَّنَمِ بِالأثَرِ ... أنْحَتِ الخِلَّ لَكَ مِنْ حَجَرِ
إذْ كَثيرُ الجَمْعِ دَوْماً وَالفَريقْ ... لِلْمُضلِّينَ وَقُطّاعِ الطَّرِيقْ
كَسَرَ ظَهْراً وَرُمْحاً وَسَنانْ ... بَدَّدَ الشَّمْلَ لَهُمْ كُلَّ أَوانْ

(المصدر نفسه).

ويمضي في رؤيته هذه، يشير إلى أن التصالح والتعايش السلمي مع الآخرين يؤدي إلى نتائج معنوية مهمة، ويؤثر تأثيرا عميقا في تهذيب وتزكية النفس، قائلا:

مَعْ سياسياتِ الَّذينَ جَهِلُوا ... اِصْبِرْ احْمِلْ جَوْرَهُمْ ما حَمَّلوا
وَلَهُمْ دارِ بِعَقْلٍ مِنْ لَدُنْ ... حَسَناً مُمْتَثِلاً لِلْأَمْرِ كُنْ
مَعَ مَنْ لَيْسوا بِأَهْلِ الصَّبْرُ كانْ ... لَهُمُ الجالي صَفّى بِامْتِحانْ

وَبِكُلِّ مَوْطِنٍ قلْبُ ظَهْر لَهُ الصَّبْرُ صَفّى مِنْ كَدَرْ
في جَلا مِرْآتِهِ الكُفرُ أبَد كانَ مِنْ أقوامِ نُوحٍ والتَّكَدْ
مَعَ صبْرِ نوحَ لِلرُّوحِ غَدى صَقيلَ المِرْاتِ دلَّ وَهَدى

(المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٩٢).

كان يعتقد الرومي أن العفو والصفح والصبر مقابل رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، مهما كان لونها وحجمها، وبطريقة مناسبة ومؤثرة للتعامل مع المخالف والخصم، وهي سيرة الأنبياء والأولياء، حيث تلعب هذه السير دورا بارزا في تزكية والطهارة وصقل النفس. وليست هذه الأمور إلا رسالة العارف أو هدف المتصوف، سوى السير على نهج الصلحاء والأولياء، وهي التخلق بالفضائل الأخلاقية والمعنوية وتكامل النفس والروح:

فَعَلى قُبْحِ القَبيحَيْنَ العُصاةْ رَحْمَةً قُولُواانْصَحوهُمْ بِالعِظاتْ
حَوْلَ حُبِّ النَّفْسِ وَالقَوْلِ أنا قَلِّلُوا طَوْفكُمْ فَهْوَ العَنا

(المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٢١).

من اللافت للذكر أنه يعتقد بأن أحد أسباب الحروب والنزاعات بين أهل الأديان والمذاهب هو الجهل والغفلة عن الحقيقة، وضعف الفهم وقلة الأفق لدى أهل الخلاف والنزاع، يقول:

إنَّ حَرْبَ الخَلْقِ حَرْب الصِبْيَةِ أشْبَهَ في وَضْعِهِ بِالْمَرَّة
كُلُّهُ عارٍ مِنَ اللُّبِ حَقيرْ ما لَهُ لُبٌ وَلِلشَّرِّ يَصيرْ
كُلُّهُمْ حارَبَ بِالسَّيْفِ الخَشَبْ كُلُّهُمْ لا يَنْبَغي أبْدَوْا صَخَبْ
كُلُّهمْ قَدْ رَكِبوا فَوْقَ القَصَبْ غَدو الفُرْسان حَثُّوا بِالطَّلَبْ
أنْ لَنا هذَا البُراقُ فِي الدُّنا أوْ هُوَ كَالدُلْدُلِ السَّامي ثَنا

(المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٢٦).

ثم إنه يرى أن أهل الخلاف والجدل عادة ما يعتمدون على الظنّ والوهم والخيال، الأمر الذي يراه غير محبب، لأنه يؤدي إلى العُجب والتكبّر، يقول:

فَمِنَ الحَقِّ الّذي عَزَّ وَجَلْ لَكَ أنَّ الظَّنَّ لا يُغْني وَصَلْ
وَهْمُكَ وَالحِسُّ وَالفِكْرُ وَما لَكَ مِنْ دَرْكٍ تَراهُ قَدْ سَمى
إدْرِهِ كَالقَصَبِ وَالمرْكَبِ لِلصِّبيِّ وَيْلَكَ لا تَعْجَبِ

(المصدر نفسه، ج١، ص ٧٢٧ـ٧٢٨).

ويذهب إلى أن التعامل بلطف ورقة ورحمة مع الآخرين من النعوت والسجايا الإلهية، وبذلك يشدو قائلا:

كانَ سَبْقُ الرَّحْمَةِ لِلْغَضَبِ يا فَتى فَاللُّطْفُ قَيْد الغَلَب
كانَ في وَصْفِ الإلهِ وَالعبيدْ فيهِمُ لا بُدَّ ذَا الخُلْقُ الحَميدْ
لَهُ مِنْ ماءٍ جَرَى النَّهْرُ القِرَب لَهُمُ نُمْلى عَلى وِفْقِ القُرَبْ

(المصدر نفسه، ج٥، ص٣٢٤).

والخلاصة، أن الرومي يعتمد نهج الصفح والتسامح وغض الطرف عن الآخر وتجاوز المخالف والعدو، ويبتعد عن العنف والغلاظة والنهج السلبي والكلام البذيء عند محاورته للآخرين، ويعد هذا نهجا وأسلوبا قرآنيا: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ (طه ٤٤: ٢٠)، حتى مع أشخاص مثل فرعون المتمرد. فهو ما يشير إليه في الأبيات التالية:

أصح يا مُوسى لِفِرْعَوْنَ الْزِّمَنْ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً حَقّ بِأَنْ
يُذْكَرَ فَالماءُ فِي السِّمْنِ غَلى أنْ تَضعْ فَالْمَوْقِد وَالمَرْجَلا
خَرّبَ الْلِينَ قُلْ غَيْرَ الصَّوابْ لاتَقُلْ آناً وَفي لينِ الخِطابْ

(المصدر نفسه، ج٤، ص٦٧٠ـ٦٧١).

وقد نقل أنه حينما سمع أن أحدا يقول للآخر: لو شتمتني مرة أشتمك الف، فقال له: تعال وخاطبني، فلو شتمتني ألف مرة لم أجب على أي واحدة منها (الأفلاكي، ١٩٦١م، ج ١، ص ١٠٥). ولكن رغم كل ذلك، فهو لم يكن لطيفا ومتسامحا مع خصومه دائما، وكان يقابلهم بأسلوب عنيف ويخاطبهم بكلام غليظ أحيانا، وهذا يحكي جواز خطأ الرجل وعدم عصمته[١].

إذا قارنا بين العلوم والمعارف الأخرى من ناحية الاعتقاد والسلوك (النظريّة والعمل)، نلاحظ تباينا واسعا بين القواعد والأصول النظرية التي يعتقد أصحابها بها وبين سلوكهم الميداني، إلا أننا لا يمكننا إنكار أن ذلك التباين والاختلاف بين المقامين أقل عند ملاحظة تباين آراء المتصوّفة والعرفاء أنفسهم، فهو يبدو بشكل أقل.

مما يجدر الإشارة أن المحور الذي يهتم به الرومي في بيان مصدر اختلاف الفكر والعقائد والطبائع البشرية ـ مضافا إلى ملاحظة قواعد فهم الوجود ـ هو التركيز على الجوانب النفسية والمعرفية وعالم الروح والباطن. ونادرا ما يلجأ إلى تفسير وتحليل علم الاجتماع أو يلوذ بتوظيف الإسقاطات التاريخية والاجتماعية، أو يعمد إلى الخوض في النزاعات الدينية والمذهبية وصراع الفرق والمذاهب ومناهجها.

وكذلك يعتقد أننا إذا أردنا إصلاح المجتمع، فعلينا أن ننطلق من الأفراد كلاً على حده. وأما الانطلاق بالتغيير الاجتماعي والقواعد الحياتية العامة دون ملاحظة خصوصية الأفراد، فهو أمر غير صحيح. فإن التغيير الأساسي والتحول الشمولي

---

١. مثال ذلك، انظر إلى المثنوي، الدفتر الثالث، حيث تشهد أنه في شعره معنون بفي بيان ذكر خيال قاصري الفهم القبيحين، يستخدم مفردات وألفاظ نابية، من قبيل الجاهل والحمار والكلب بحق من تعرّض له ولشعره، رغم أنه قال:

أَنَا لا أَغْضَبُ مِنْ هذا بَلى ... إنَّ الرِّفْسَ ما إنْ حَصَلا
عَصَبَ خاطِرِ ذِي القَلْبِ السَّليمْ ... قَطَع أَوْرى بِها حِقْداً عَظيمْ

(ج ٣، ص ٧٦٤).

للمجتمعات لا يستطيع أن يخلق صلاحاً أو إصلاحاً مطلوباً؛ ذلك لأن الفساد والصراع والحروب المنتشرة في عالم الشهود بحسب الظاهر تمكنت من اختراق عالم الباطن ودواخل كل نفس إنسانية. وإذا كان هنا صلاحاً أو إصلاحاً أو تغييراً، فلا بد أن يبدأ من هناك، كما يصرح بذلك القرآن الكريم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم ٣٠: ٤١)، و﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد ١٣: ١١).

وخلاصة التحول الأساسي الفعال هو ذلك التحول والتغيير الذي يقع في الباطن. فإن التجربة البشرية قد أثبتت أن تغيير الأنظمة السياسية وتبديل المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في عالمنا لم يُحدث تغييراً أساسياً في أعماق البشر ولا في ثقافته.

وقد ذكرنا سابقا أن الرجل ينظر إلى موضوع التغيير والإصلاح بنظرة فوقية رغم تحفظه على تطبيقها وممارستها، ويشاهد العداوة والعنف بين أفراد البشر مشاهدة المتابع والمراقب بعين الحق إلى هذا العالم وما يحمله من ظواهر وأحداث حافلة، بمعزل عن المشاركة والمساهمة في ما يجري ويحدث فيه.

ومن هنا، فلا يختلف بالنسبة إليه، الحديث عن الربح والخسارة، وحتى رؤيته إلى مجموعة الوقائع والأحداث في الحياة البشرية، وخاصة محاولات التغيير وجملة الصراعات والمعتقدات المختلفة. فهي رؤية ومشاهدة بعين الحسن والجمال، تتضمن أسراراً وألغازاً ساحرة؛ بذلك ليس القبح والجمال والشيطان والملك والعبد أو الطاعة والمعصية أو الحرب والسلام إلا أموراً لازمة وضرورية لهذا الكون (مشيدي، ١٣٨٣.ش، ص ٩٢ ـ ٩٥):

لَيْلَةُ البَدْرِ وَالبَدْرُ السَّما ... نُورُهُ جَلّى السِّماكَيْنِ سَمَى

مِنْ كِلابِ الأَرْضِ وَالنُّبْحِ لَها ... ما لَهُ ضُرٌّ وَلَمْ يَأْبَهْ بِها

بِنِباحِ البَدْرِ في جُنْحِ الظَّلامْ نَجّزَ الكَلْبُ المُرادَ وَالمَرامْ
وَكذا بِالغُرَّةِ البَدرُ المُنيرْ نَجّزَ المَطْلوبَ وَالأمْرَ الخَطيرْ
شُغِلَ في شُغْلِهِ كُلّ أحَدْ طَلِبَ مصْلِحَةً مِنْهُ بِجدْ
لكنِ الماءُ صَفاهُ ما ترَكْ لِخَسيسٍ لا وَلا مَعْهُ اشْتَرَكْ

(د.ت، ج ٢، ص ٨٥).

فهنا، وعلى ضوء ما يعتقده جلال الدين الرومي، فإن الكلب والقمر كل منهما له مهمة يمارسها ويقوم بها. من هنا، فإن مكافحة جحد القلوب وكفرها ومحاربة المعاصي هي مخالفة لطبيعة الوجود، أي الطبيعة البشريّة. كذلك، فإن المخالفين والمتمردين هم على الأقل جزء من الشرور والرسوم القبيحة التي رسمت بيد رسام العالم. غاية الأمر أن قبح الرسم ليس بسبب قبح الرسام، بل. بحسب تعبيره. يعود القبح لقبح المرسوم، فيجب علينا الاعتراف بأن هذه القبائح والمخالفات هي جزء من طبائعنا ووجودنا البشرية.

وهذه النظرية تقتضي أن المخالفة والمعصية لو لم تتحقق، كان سحر العالم وجماله ناقصا. وربما استعار صاحبنا هذه الملحوظة من القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان ٢٥: ٣١)، أو ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ (الفرقان ٢٥: ٢٠).

٣. التسامح وآثاره وتجلياته في فكر وسلوك الرومي

لقد كان جلال الدين الرومي ملتزما بتعاليمه الصوفية، وكان يحترم جميع الناس من جميع الطبقات، مخالفا كان أم موالفا، حيث روي أن كل الصناعات وأصحاب الأعمال

والحرف المختلفة كانوا يلاقون منه نفس المحبة واللطف، فلم يكن ينظر إلى لونهم أو دينهم أو مذهبهم. فمثلا تجده في مقابل أحد القصابين الأرمن الذي كان يطأطئ رأسه احتراما له، يقابل ذلك بأضعاف مضاعفة من الاحترام والتبجيل، وكذلك كان يتواضع أمام أحد الرهبان الروم الذي كان يتواضع أمامه ويحترمه احتراما خاصا وملفتا، أو يتواضع عند لقائه للرهبان الفقراء والقساوسة البسطاء. كل ذلك يمكن أن يعد مَنهلا وقدوة للخُلق الرفيع (زرين‌كوب، د.ت، ص ٨٠٣).

وعندما كان يسأل: أننا نرى بعض الآباء والأولياء متكبرين، فما هو منشأ ذلك الكبر؟ فكان يقول: إن في رجال الله وأحبّاءه كبر الكبرياء والعظمة القدسية، وليس تكبرا ورياء وتجبرا وأنانية في النفس ولا عجبا بالجاه والمال (الأفلاكي، ١٩٦١م، ج ١، ص ٧٥٣).

وهاهو، في موضع آخر، كان يوصيه أتباعه بعدم الاعتناء بذلة ووضاعة الكفار، قائلين: بما أنهم غير مدركين لمكانته وحياته، فلا يبادرون إلى الحكم عليه وتقييمه. فإنه - بحسب رؤيته العرفانية - كان يعتقد بأن الحكم على الأفراد والحكاية عن مصيرهم ليس من شأن عامة الناس، وكان يرى أن ميزان تقييم الناس لا يستقيم، وكذلك الحالة الفعلية للأفراد؛ فنراه يقول:

دائِماً قالَ عَلى هذَا النَّسَقْ ... ذَا اليَهوديٌّ وَكَمْ يا ذَا اتَّفَقْ

مِنْ يَهوديٍّ لَهُ الآخرُ كانْ ... فِي الدُّنَاالمَحمودُروحاًوَجِنانْ

أَبَداً لِلْكافِرِ لا تَنْظروا ... لهُ بِالتِّحْقيرِ منْ هذَا احْذَروا

فَعَلَى الإسْلامِ كَمْ صارَ الأَمَلْ ... إن يَموتُ ولهُ العَفْوُ حَصَلْ

فعَنِ الختمِ لِعُمْرٍ لهُ ما ... تعلّم مِنْ خَيْرٍ ما ذا نمى

كَي بِهذا وَجْهَكَ بِالمَرَّةِ ... عَنْه تُثْني نافِراً بِالفِطْرَةِ

(د.ت، ج ٦، ص ٤٧٨).

وبحسب ما ذكره أحد المختصين في شأن تصوف الرومي وعرفانه، فإنه استطاع أن يتخلص من الغرور والتكبر الذي استحوذ على بعض العلماء، وتمكن من استئصاله من أعماق نفسه، الأمر الذي نادرا ما يحصل. وقد تجلى ذلك فيه، حينما كان يشعر بحقد البعض أو كان يستمع إلى ازدراء وسخف بعضهم الآخر، فكان يرد ببرود وهدوء (زرين‌كوب، د.ت، ص ٩٠٣).

كان الرومي يبدي تواضعا وطيباً إزاء اليهود والمسيحيين وأتباع الديانات الأخرى، في سلوك مميز يعكس سمو النفس ونقاء الروح، وارتسم فيه لون التسامح الفكري بشكل ملفت. ظهر أثر هذا السلوك، عندما اجتمع مسيح ويهود ومجوس المدينة، يتقدمهم الأحبار والرهبان والأساقفة على جنازته عندما توفي، وبادروا في ذلك اليوم إلى حمل جنازته من المدرسة وأخرجوها إلى حيث مثواه الأخير، وكان جميع الزعماء وكبار القوم وصغارهم حاسري الرأس، وقد ساد الحزن قلوب الناس، فكانوا يسيرون خلف جنازته، وقد مزقوا ثيابهم من شدة الأسى، هكذا كان اليوم الذي توفي فيه، فكان يوما حزينا بائساً، أقرح قلوب الناس، ليس فقط المسلمين وأئمتهم، بل حتى أحبار اليهود وقساوسة النصارى (المصدر نفسه، ص ٣٤٠). فحضر أهل قونية صغارهم وكبارهم في مراسم تشيع جنازته، وشارك اليهود والنصارى والمجوس، المسلمين في عزائهم بفقدانه بالصراخ والعويل، وكل واحد منهم، حيث كان يعزّي نفسه برحيله (سلطان ولد، ١٩٨٨م، ص ١٠٣). يقول العارف والمتصوّف، عبد الرحمن الجامي، في نفحات الأنس من حضرات القدس:

> كان مولانا سراج الدين القونوي، صاحب مكانة كبيرة في عصره، ولكن لم يكن على علاقة طيبة مع مولانا جلال الدين الرومي. فأخبروه بأن الرومي قد قال: إني وحيد مع ثلاثة وسبعين مذهبا. بما أنه كان يتبع غرضا سيئا، فأراد الانتقاص من مولانا

الرومي والتقليل من شأنه. فقام بإرسال أحد المقرّبين منه، والذي كان هو نفسه أحد العلماء الكبار في ذلك الوقت، إلى جلال الدين الرومي، ليسأله في الجمع: هل أنت قلت ذلك، وأوصاه بأنه إن أقرّ الرومي بمقالته، فعليك سبه وشتمه بين الملاء. فجاء إليه الرسول العالم وسأله أمام الناس: هل قلت: أنا وحيد مع ثلاثة وسبعين مذهبا؟ فقال نعم. فتح ذلك الرجل لسانه، وبدأ بالانتقاص من الرومي وشتمه والتقليل من قدره، فابتسم الأخير، وقال: أنا وحيد مع ما قلت. فخجل ذلك الرجل وعاد أدراجه (١٣٧٥، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

ويرفد مولانا قوله عن هذه القصة: أتمنى أن لا أكون مزعجاً لأي إنسان ولا أجرح أي قلب، وما يقوله عني البعض ويهجوني به في الملاء وما يبادر إليه بعض الأحبة والأصحاب من منعهم ومجادلتهم، يزعجني أيضاً؛ إذ قلت مئة مرة: أنا راض عما يقوله عني أي شخص، مهما كانت مقولته أو شتيمته (الأفلاكي، ١٩٦١م، ص ٧٤).

وينقل الأفلاكي حكاية عن بعض محبي ومريدي الرومي:

في يوم من الأيام، كان مهندساً رومياً يصنع مدفئة في أحد بيوت الله، فجاء إليه أصحابه يلاطفونه قائلين: لماذا لا تدين بدين الإسلام، ألا تعلم أن أفضل الأديان هو دين الإسلام، فقال: أنا أعتنق دين عيسى منذ خمسين عاما، والآن أخاف منه وأستحي أن أترك دينه وأدين بدين غيره، بينما هم كذلك. في حالة البحث والجدل. إذ دخل مولانا الرومي، ويبدو أنه سمع ما جرى بينهم من حديث، فقال: إنّ سر الإيمان الخوف، وكل من يخاف الحق تعالى، فهو متدين وليس كافرا (١٩٦١م، ج ١، ص ٧١).

انتصر الرومي المهندس المسيحي، إذ علّم أصحابه ومريديه حقيقة الإيمان والوفاء به، وهذا هو الإيمان الذي أراد الرومي تعليمه للآخرين.

لقد زخر تراث مولانا جلال الدين الرومي ككتاب المثنوي المعنوي وكتاب فيه ما فيه وديوان شمس بالأشعار والأحاديث والقصص التي تجعل القارئ يهتم بمراعاة الآخرين،

وحسن معاشرته معهم ومحبته لهم ومخالطته لهم بمنأى عن التعصب والقسوة. من هنا، يكتشف القارىء والباحث لهذا التراث أن ذلك الاهتمام والحرص كان جزءا من رسالته وهدفه، فهو لا يرى سببا يمنع من تحقق الوحدة الإنسانية حتى مع التشظي والانقسام في الأديان والمذاهب، ولا حرجاً إطلاقاً من أن تسود المحبة والاتحاد بين المؤمن والكافر والمسلم والمسيحي ولا بين اليهودي والمجوسي والبوذي، وكان يوصي أصحابه ومريديه بالابتعاد عن التفكير بالتمييز بين هؤلاء، ويوعز لهم بضرورة ترك التعصب ونبذ الخلاف. فكان من أكبر المتصوفة المسلمين الذين نادوا بالتسامح والمحبة للأديان الأخرى واللطف بأهلها، وحرص على ذلك عمليا، لدرجة أن الغالبية الساحقة من المختصين بتراث وبتصوف الرومي والباحثين في أشعار المثنوي، يعتقدون أنه كان بعيدا كل البعد عن التعصب الديني والتطرف المذهبي، وكان يكنّ لسائر المذاهب والأديان الأخرى كل الاحترام والتبجيل والمحبة.

يقول جلال الدين همايي: كان ينظر الرومي إلى المذاهب الأخرى، بما في ذلك المجوسية واليهودية والمسيحية وحتى الكفار من الناس، من منظور عرفاني متسامٍ، حيث لم يصدر عنه أي ازدراء أو بغض أو استحقار تطال المذاهب والأديان الأخرى، كما يفعل العوام عن جهل؛ ولكن لا يسعنا أن نجزم أن الرجل لم يختلف أبدا مع أصحاب الأديان الأخرى لاسيما علمائهم، أو نقطع بعدم انحيازه الباطني لدينه. أما سلوكه الظاهري فكان مماثلا لسلوك وعمل سائر العرفاء والمتصوفة المسلمين؛ إذ كانوا يعاملون أتباع المذاهب والأديان الأخرى على نحوين: الأول: المحبة والتسامح؛ والثاني: الابتعاد عن الخصومة والمنازعة.

وهذا التعاطي المزدوج يمكن استلهامه أيضا من التراث المنظوم والمكتوب للرومي، وكذلك بعض المذكرات والسيرة الذاتية التي كتبت عنه. ففي الوقت الذي كان الرومي يقطن مدينة قونية، كان المسلمون والمسيحيون واليهود والمجوس يعيشون

جنبا إلى جنب. ومن المتوقع أن تكون هناك معاشرة واحتكاك وتعامل، إيجابيا كان أم سلبيا. ومن الطبيعي جدا أن الرومي لم يكن بعيدا عن هذا الوسط والمناخ الذي كان سائدا، فكانت له علاقات مع المجوس واليهود والنصارى و...، وكان يبادر أحيانا لمناقشتهم والتباحث معهم علميا (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦١٠).

ولكن يبدو من سيرته الذاتية وما نقل عن طبيعة حياته، أنه كان سمحاً محباً محترماً لليهود والنصارى في أكثر أوقاته. وفي المقابل، كانوا يحترمونه ويحبونه كثيرا، على نحو تجلى ذلك في مشاركتهم في تشييعه ودفنه، وكانوا يرتلون على جنازته آيات من التوراة والإنجيل، ويقرؤون لرحيله الأشعار والأناشيد الحزينة؛ وفي تلك الأثناء، كان بعض المسلمين يسألونهم حيارى: ماذا يعني لكم هذا الحدث؟ فيجيبون: نحن أدركنا حقيقة موسى وحقيقة عيسى وسائر الأنبياء (عليهم السلام)، من بيانه ولسانه. فلو قلتم أنتم المسلمين: إنه محمد العصر، لاعتبرناه موسى عصره وعيسى زمانه (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥٢).

الخاتمة

يمكن الادعاء بأن الصوفيين لعبوا أبرز دور في توحيد الصفوف والحثّ على السلم والمواساة والصفح، ثم التساهل والتسامح الديني وإزالة العصبية الدينية والعرقية والقومية، والحرية والتعايش السلمي. يبدو أن جلال الدين الرومي ترك تأثيرا بارزا في هذا الميدان أشد تأثير، مقارنة بالآخرين، بسبب صياغة كلماته في أشعار وقصص تمثيلية، الأمر الذي يزيّن كلامه من جهة، ويسهّل استيعابه من جهة أخرى. فلذا، نجد الصغير والكبير والأمي والمثقف يواكبه فيما قد نادى به. وبعد أن سبرنا أغوار مبادئ أفكاره، وجدناها مبنية على وحدة

الوجود وتجلي الخالق في كل خلقٍ والعرفان والعشق. هذا هو ما شكّل عقليته تجاه الإنسان والعالم، وهذا هو ما صاغ معرفته ورؤيته.

اليوم، وبعد قرون طويلة، لازلنا نجد إقبالا كبيرا على هذا الشاعر الكبير من قبل أصحاب المذاهب المختلفة. ودون شك أنّ ما خلّد ذكراه هو حسن معاملته مع مخالفيه وشفقته على إخوته في الخلق، أي جميع أبناء البشر، بغض النظر عن ديانتهم ومذهبهم. وفي عصرنا الراهن، فإنّ الحلّ الذي سيخفّف عن هذا الصراع المذهبي والتكفير والعنف والاحتقان القومي الكبير، هو الأخذ بما نادى به الرومي والسير على طريقته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أ. العربية

الرومي، جلال الدين. (د.ت). جواهر الآثار في ترجمة مثنوي محمد جلال الدين البلخي الرومي شعرا. ترجمة وتحقيق عبد العزيز صاحب الجواهر. طهران: دانشگاه تهران.

ب. الفارسية

الافلاكي، شمس الدين احمد. (١٩٦١م). مناقب العارفين. تصحيح تحسين يازيجي. آنكارا: انجمن تاريخ ترک.

جامي، عبدالرحمن. (١٣٧٥هـ.ش). نفحات الأنس من حضرات القدس. تهران: اطلاعات.

زرين‌كوب، عبدالحسين. (بی‌تا). پله پله تا ملاقات خدا. تهران: علمی وفرهنگی.

سلطان ولد، محمد بن محمد. (١٩٨٨م). ولد نامه. تصحيح جلال‌الدين همايی. تهران: بی‌نا.

فروزانفر، بديع‌الزمان. (بی‌تا). شرح مثنوی شريف. تهران: زوّار.

مشيدی، جليل. (١٣٨٣هـ.ش). نگرشی بر انديشه‌های مولوی. اراک: دانشگاه اراک.

مولوی، جلال‌الدين. (١٩٨٤م). فيه ما فيه. تصحيح بديع‌الزمان فروزانفر. چ ٥. تهران: بی‌نا.

References

The Quran.

Aflākī, Shams al-Dīn Aḥmad al-. 1961. *Manāqib al-ʿārifīn*. Edited by Tahsin Yazıcı. Ankara, Turkey: The Turkish Historical Society.

Forouzanfar, Badiozzaman. n.d. *Sharḥ-i Mathnawī sharīf*. Tehran: Zovvar.

Jāmī, ʿAbd al-Raḥmān. 1375 Sh. *Nafaḥāt al-uns min ḥaḍarāt al-quds*. Tehran: Ettelaat.

Mawlawī, Jalāl al-Dīn. 1984. *Fīh mā fīh*. Edited by Badiozzaman Forouzanfar. Tehran: n.p.

Moshayedi, Jalil. 1383 Sh. *Nigarishī bar andīshih-hāyi Mawlawī*. Arak, Iran: University of Arak.

Rumi, Jalal al-Din al-. n.d. *Jawāhir al-āthār fī tarjima Mathnawī Muḥammad Jalāl al-Dīn al-Balkhī al-Rūmī shiʿrā*. Translated and edited by ʿAbd al-ʿAzīz Ṣāḥib al-Jawāhir. Tehran: University of Tehran.

Sulṭān Walad, Muḥammad b. Muḥammad. 1988. *Waladnāma*. Edited by Jalaluddin Homaei. Tehran: n.p.

Zarrinkoob, Abdolhossein. n.d. *Pillih pillih tā mulāqāt-i khudā*. Tehran: Elmi va Farhangi.